سورية عربية (١)

أولا وآخرا

للعالم الكاتب السياسي الكبير الامير شكيب ارسلان

« في البيان »

قبل ان انجلى الاتراك عن سورية كان جميع اهلها عربا ولم نكن نسمع فيها بسرياني وعبراني الا من قبيل العاديات (الآثار العتيقة) . وكثيرا ممن يرزوا لنا الآن بالحلة السريانية كانوا من صميم القحطانيين يومئذ ، وذلك لان مقصد مثل هؤلاء كان اخراج الترك حتى يحل محلهم احدى الدول الاجنبية . فلما خرج الترك وجاءت محلهم دولة عربية تريد تحرير البلاد باسم العرب وتنفي كل من يريد ان ينشئ البلاد من غير العرب جدت عند بعض هذه الفئة القليلة من اهل سورية نغمة لم تكن معهودة من قبل وهي اننا نحن سريانيون غير عرب وان لغتنا هي السريانية وانما غلب علينا اللسان العربي منذ قرون ولكن بقيت لنا فيه لهجة خاصة تشعر بكوننا سريانا . . . ويا ليتهم قصروا دعواهم على هذا القول فكنا نوافقهم على كون هذه الفئة القليلة هي سريان ولكن طمحوا الى دعوى أعرض من ذلك وهي ان سورية كلها سريانية وانما بدخول العرب الفاتحين تعلم اهلها اللسان العربي وهذا غاية ما في الامر

تكررت اقاويلهم هذه سواء في جرائد عربية اللغة او اجنبية اللغة والعرب قلما يحفلون بها لخروجها من التاريخ وامعانها في التحكم وكونها غلطا او مغالطة فاوهم ذلك بعض اخواننا من ابناء البلاد انهم على حق فيما يدعون فيه

ومن هذا القبيل رسالة طالعناها آخرا تحت عنوان « الحقيقة ضالتنا المنشودة » حاول فيها الكاتب ان يثبت كون سورية سريانية لا عربية وانه لا ينبغي ان يثقل هذا القول على العرب اذ ليس فيه مساس بكرامتهم وكما لا يغض العرب ان نقول : ان الرنسيس ليسوا عربا . الانكليز ليسوا عربا . الايطاليون ليسوا عربا . فكذلك قولنا ان السوريين ليسوا عربا وانما هم سريان . توفرت على ذلك الادلة التاريخية والاركيولوجية والاثنولوجية الخ والاعتراف بالحق أولى . الى غير هذا من الاقاويل التي كنا نحب ان نطوي عنها كشحا كما طوى

(١) نقلا من عددي جريدة الافكار البرازيلية المؤرخين ٦ و ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١

هو عن مناظر حدث عنها . الا انه لما كان جاء من باب التاريخ والحقائق العلمية وكان من الفضلاء المستقرين للخبر والاثر، المغرمين بالسير والنظر ـ كما يظهر من كتاباته ـ أحببنا أن نخوض معه عباب هذا البحث متوخين فيه الوجهة العلمية المحرفة معتمدين على التاريخ — لكن التاريخ المحقق الممحص لا المخيل ولا المخترع — لان الحقائق لا تكون بالظنون بل بالادلة وبعد ذلك نترك لقارئ المنصف ناشد الفضائل التي أشار اليها الكاتب في رأس رسالته الحكم على نسب الاكثرية من أهل سورية أهو عربي أم سرياني .

نقول : أولا ـ ان العرب والسريان (والعبرانيين) هم جميعا من الشعوب السامية لانه قد اتفق المؤرخون الاثبات على كون الساميين قسمين (أحدهما) الساميون الشرقيون وهم البابليون والاشوريون ، وبعد ذلك . فالساميون الكنعانيون وهم الذين كانوا في فلسطين قبل اليهود والكنعانيون سكان سواحل سورية أي الفينيقيون واليهود والاراميون والسريانيون وآراميو فلسطين الذين خلق بلغتهم السيد المسيح عليه السلام والتدمريون والنبط

ثانيا ـ الساميون الجنوبيون وهم العرب وهؤلاء قسمان الشماليون وهم عدنان ، والجنوبيون وهم قحطان والعرب البائدة وعرب المهر واهل جزيرة سوقطرة وينضاف اليهم الساميون والافريقيون وهم الحبشة وهؤلاء ثلاثة اقسام وهم البتري والتارينة والامارينة ، وكذلك من الساميين أقباط مصر وهم والصوماليون والجبرت من جنس واحد

فالسريانيون اذاً هم والعرب من فروع شجرة واحدة متدانية الاغصان يدل على ذلك تقارب ما بين لغتي الفريقين حتى لقد يفهم العربي بعض السرياني بدون تعلم بل بمجرد السماع لشدة ما بين اللغتين من الشبه ولقد اعترف بذلك الكاتب صاحب تلك المقالة ولكنه تعجب في الموضوع ذكر سبب هذه المشابهة وهو اتخاذ الاصل ووشيجة الرحم بين العرب والسريان . فنسبة السريان الى العرب ليست أبدا من قبيل نسبة الفرنسيس ولا الانكليز ولا نحوهم من الشعوب الاوربية الى العرب ، بل هي نسبة ابناء عموم السلالة بحيث ان الفرق بينهم هو كالفرق بين الفرنسوي والايطالي أو الاسبانيولي من تجمعهم اللاتينية أو هو أقل من ذلك

ثالثا ـ ان اكثر المستشرقين الاوروبيين لا يرون في اكثر الامم السامية

الا بطونا من العرب . وان السريانيين هم في الحقيقة الاراميون وان الاراميين كان فيهم عرب كثير لانه ليس المقصود بالاراميين شعبا ذا عرق واحد بل معنى كلمة الاراميين سكان البلاد العالية كما ان معنى كلمة الكنعانيين سكان السهول. كما انه في أواسط آسيا يوجد الايرانيون والطورانيون وقد يتوهمون انهم شعبين منفصلين نسبا والحال ان معنى الايرانيين سكان الحواضر ومعنى الطورانيين سكان البوادي . ولقد ثبت كون العرب سكنوا سورية من على عنق الدهر راحلين اليها من الجنوب فدخل منهم من سكان السهول في الكنعانيين واندمج من سكان الجبال في الاراميين وهؤلاء الاراميون لم يتسموا سريانا الا فيما بعد سماهم بذلك اليونان وادعاء الكاتب ان السريانيين السوريين هم السريان اهل بابل وأشور ـ ولهذا هو يفتخر بمدنيتهم ـ هذا فيه مافيه فان المؤرخين لا يخلطون بين السريان والاشوريين كما خلط حضرته جهلا أو تجاهلا لغرض في النفس

رابعا ـ ذهب الاستاذ « سبرنغر » الالماني في كتابه « حياة وتعاليم محمد » صلعم وكتابه الآخر الشهير « جغرافية بلاد العرب القديمة » الى ان جزيرة العرب هي مهد جميع الساميين . وممن ذهب الى ذلك من فحول العلماء الاستاذ سايس الانكليزي في كتابه « أجرومية اللغة الاشورية » ومثله الاستاذ شرودر الالماني أعلن هذا الرأي في مجلة الشرق الالمانية . ومثله الاستاذ رايت في كتابه « اجرومية الالسن السامية » وهو المدرس بكلية كمبردج . ثم العلامة ماكس مولر قال هذا القول نفسه وغير هؤلاء من العلماء المحققين ذهبوا الى ان جزيرة العرب هي مهد الامم السامية باسرها فيكون السوريون بحكم الضرورة عربا في الاصل كما لا يخفى . وذهب آخرون الى ان اصل الاقوام السامية هو من افريقية هاجروا الى جزيرة العرب وفيها نشأوا ونموا وتفرعت عشائرهم ومنها خرجوا الى سائر الاقطار . ومن اصحاب هذا القول روبرت سميث الانكليزي وبارنون الامريكاني وغيرهما وعلى كلا المذهبين يكون مرجع السوريين الى العربية

خامسا ـ في عهد العائلة المصرية السادسة أنفذ قائد فرسان من مصر لارتياد اراضي سورية فلم يجد هناك سوى الكنعانيين ولم يقف يومئذ على أثر للفلسطينيين ولا للعبرانيين هذا في كتاب العلامة الهولندي تيل وان كثير

من المؤرخين البحاثين لا يرون في الكنعانيين الا بطنا من العرب . ثم ان المعربين الاقدمين جاروا جيلا اسمهم الشاسو في جبال سيناء وجنوبي سوريا وهذا الجيل كان عربيا

سادسا ـ الفينيقيون هم في سورية قبل السريان وقبل الاراميين وقد ذكر هيرودتس ان قسما من الفينيقيين جاءوا الى ساحل خليج فارس كما ان العلامة الانكليزي بينت اجرى حفريات كثيرة في جزيرة البحرين استنتج منها كون الفينيقيين من هناك وان قسما آخر من الفينيقيين جاءوا من سواحل البحر الاحمر ، وعلى كلا الحالين فهم عرب من نفس جزيرة العرب . وبعد ان يثبت كون الفينيقيين عربا لا يبقى محل للنزاع في عروبية القسم الاعظم من أهل سورية ولا في الدرجة العليا التي يحتلها العرب في تاريخ المدنية قبل الاسلام فضلا عما بعده

سابعا ـ الانباط هم عرب يمانيون وقد كانت لهم في سورية دولة وصولة ومدنية فخمة تدل عليها آثارهم واخبارهم وكانت لهم حروب وصلح وعلم ووادي موسى (بترا) وان لم يكن من منهم سوى وادي موسى (ينحدرون من الجبال بيوتا فارهين) لكفى تكيف وهناك جرش وما فيها وقد كانت عروس المشرق ، ومن الانباط المعوريون الذين يقال لهم البتنيون جنوبي نهر الاردن

ثامنا ـ عند مجيء ابراهيم الخليل الى سورية كان في هذه البلاد يعبدان أحدهما الحثيين في الشمال والثاني العرب الكنعانيون والعموريون الكنعانيون في الجنوب وقد وجد ابراهيم ملكيصادق الملك الموحد الذي كان يعلم ابراهيم ويبذل له الاعلى وأدى اليه ابراهيم العشر وان العلامة هيرشفيلد كتب في المكتشفات الاثرية في القرن التاسع عشر يذهب الى ان ملكيصادق كان عربيا . فينظر الانسان في أي دور كان العرب ملوكا ودولا في سورية

تاسعا ـ يتفق المؤرخون على ان أساس المدنيات القديمة هو الزراعة والتجارة وكل الآثار تدل على ان أكثر مراسم الديانة في سورية آتية من جنوبي جزيرة العرب . وأهم مراسم اليهودية مأخوذة من ديانة مدين وهي يمانية بحتة والفينيقيون سكان سيناء كانوا عربا من اليمن ايضا

هذا ومن اطلع على كتب ولهاوزن الالماني وروبرت سميث الانكليزي

المؤرخين البحاثين في الامور الدينية ، ان أكثر هذه المسماة بالطقوس آتية من جزيرة العرب كما ان المؤرخ الاميركاني هارون بورتون ذهب الى ان كل الاديان السامية هي من العرب . أما التجارة فمن المقرر ان أكثرها كان مع اليمن وانها كانت سبب سعادة سورية حتى ان ثروة سليمان بن داود الشهيرة كان معظمها من الاتجار مع اليمن ولا يخفى انه باستمرار القوافل بين اليمن وسورية كثر طراء العرب على الديار السورية وأوطنوها وتمكنوا وتشعبوا فيها

عاشرا ـ وجد الضجاعمة من عرب اليمن في حوران وجنوبي سورية قبل الاسلام باحقاب متطاولة . وفي زمن النبي ايليا أي قبل المسيح بنحو ستمائة سنة جاء القائد نعمان العربي من الشام يستشفي من البرص عند اليشع تلميذ ايليا . ثم كان بنو سليح وكانوا يحكمون حتى أبواب مدينة دمشق أما الغساسنة وهم من الازد من عرب اليمن أيضا فقد كانوا في فلسطين والشام وتدمر وكانت لهم القوة والصولة وبقيت عنهم الآثار الباهرة واستمر ملكهم نحو ستمائة سنة ـ فيما أتذكر ـ الى ان ظهر الاسلام . فأنت ترى تعاقب الدول العربية على سورية من ايام الكنعانيين وملكيصادق الى الانباط والمالقة والفينيقيين الى الضجاعمة الى الغساسنة وكل من هذه الامم انبسطت وامتدت وتركت ملايين من الذراري في ارض سورية

حادي عشر ـ كان الغالب على سورية العنصر الوارد اليها من الجزيرة العربية قبل الاسلام فكيف من بعده . وقد جاء العرب المسلمون وفتحوا البلاد واندفق سيل المهاجرة من كل حدب واستمر ثلاثة عشر قرنا الى اليوم . ومما قرره علماء التاريخ ان الحواضر السورية تكسب كثيرا من البوادي حتى ان بعضها قد ينقرض لولا طراء البادية . وليس ورود العرب على سورية وايطانهم سورية هما من قبيل الحدس والتخمين وان ذلك عقلا لابد ان يكون هكذا بل مئات الوف من أهل سورية الآن يحفظون أنسابهم ويعرفون انفسهم انهم عرب ومنهم من عنده كتابات خطية تثبت دعواه ومنهم من يعتمد على التواتر ومنهم من انقطعت به أسباب العلم من معرفة أصله ولكنك تعرفه عربيا من سحنته

ثاني عشر ـ اما كون أهل سورية أسلموا لدن الفتح العربي فنريد عليه دليلا واحدا نريد تاريخا أو نصا مبينا او قرينة قاطعة لا يكفي في ذلك مجرد الظن لان الظن لا يغني من الحق شيئا . نعم اننا لا نستبعد ان يكون كثير من

الافراد عند الفتح وبعد الفتح على توالي القرون دخلوا في الاسلام ولكن لايؤدي دخول هؤلاء الى كون السواد الاعظم من أهل سورية كانوا يوم الفتح الاسلامي نصارى أو يهوداً وأسلموا . كما ان وجود العرب نحو مائة سنة في جنوب فرنسا وتنصر من بقي منهم هناك بعد جلاء الحكومة العربية عن تلك البقاع ، لايفيد كون معظم أهل جنوبي فرنسا أصلهم من المسلمين بل يقال ان كثيرا من العائلات في هاتيك الديار ترجع الى العرب . كذلك تنصر عشرات الوف من عرب الاندلس وربما مئات الوف عند ماحملهم فرديناند وايزابلا ثم ديوان التفتيش الشهير بعدهما ثم فيليب الثاني على اعتناق النصرانية بالسيف والنار وربما خيروهم بين التنصر والجلاء فالذي عز عليه دينه جلا والذي عز عليه ملكه ووطنه تنصر ورغم هذا فلا يستطيع مؤرخ ان يقول ان اكثر سكان اسبانيا اصلهم عرب . فهذه الرواية التي معناها ان أكثر أهل سورية اسلموا عند الفتح العربي لاصحة لها . والصحيح ان الامة الغالبة غلبت ونمت كما هو شأن جميع الامم الغالبة وان الامم المغلوبة ضعفت وتناقصت كما هو شأن جميع الامم المغلوبة على امرها ودخل في سورية أقوام كثيرة من المسلمين غير العرب فاستعربوا وصاروا عربا منهم الاتراك ومنهم من المغول ومنهم من الاكراد ومنهم من الشركس ومنهم مغاربة دخلوا في أيام الفاطميين وغير ذلك فاق عدد المسلمين في سورية كثيراً على عدد سائر الملل بهذه الاسباب العديدة

ثالث عشر — ينبغي لمثل هؤلاء الذين يرمون الكلام على عواهنه ويقولون ان السوريين هم سريان ان يراجعوا التواريخ العربية ما كان منها على مناهل الاعراب ودخولهم في الحواضر كالقلقشندي والمقريزي وعلى تواريخ الحروب الصليبية التي حررها مؤلفو العرب وعلى كتب التراجم وأنساب بعض العائلات والعشائر وعلى أخبار القيسية واليمنية وعلى الجغرافيات العربية القديمة بحيث يتكون عندهم التصور اللازم لمعرفة الحقيقة . بل لايكفي هذا وحده حتى يقترن بالتنقيب بين سكان البلاد وسؤال قبيلة قبيلة وقرية قرية عما يعلمون من اصولهم وبعد ذلك يظهر انه ليس الجهل الذي فشا والعلم الذي طغى هما اللذان جعلا أهل سورية يقولون « نحن عرب » بل الجهل بتاريخ العرب وبأنسابهم والاقتصار على رواية واحدة هما اللذان أديا الى القول الجديد « ان السوريين سريان » : ان العرب هي الامة الوحيدة التي يستوي عاميها وخاصيها

في معرفة نسبه ولم يبلغ انحطاط العلم في سورية ولا مرة ان جهل العرب فيها أصولهم وما على المرتاب الا ان يجول بنفسه في البلاد ويستقصي من أهلها عن أصلهم ليلمس الحقيقة لمساً

رابع عشر ـ ان كثيرا من نصارى سورية هم من أصل عربي غساسنة وغيرهم. منهم من بقي بحوران ومنهم من جلا الى دمشق وحاصبيا وبعلبك وزحلة وجبل لبنان . ولا يلزمني الآن أن أعرض لاسماء هذه البلدان التي تعرف أنفسها. ولعلنا نذكر ذلك مرة أخرى . وان طائفة الدروز هم من قبائل لخم وجذام وبطون أخرى جاءت آباؤهم أيام الفتح الى معرة النعمان ثم أسكنهم الخلفاء العباسيون جنوبي لبنان وان أكثر طائفة الشيعة هم من عاملة من عرب اليمن جاءوا الى الشام ونزلوا بجبل سمي بهم وهو جبل عاملة أو بلاد بعارة ولست ادعي انني على شيء من الاحاطة بأنساب عرب سورية فان ذلك بحر زاخر لا ساحل له لكن المعروف منه عندنا هو مما تضيق عنه هذه المجالة. وبالاختصار فالسواد الاعظم من مسلمي سورية وطوائف سورية المنتمية من الاسلام هم عرب ثم مستعربون من أمم غير سامية . وان قسما عظيماً من نصارى سورية هم عرب صراح لا جدال فيهم وان بين الطائفة المارونية ذاتها التي تنتسب الى السريانية بطوناً كثيرة عربية جلت الى لبنان من حوران باعتراف المؤرخين اللبنانيين من أهل التحقيق ، وسواء اراد بعض السريان أن يفصلوا أنفسهم عن العرب بعد أن استعربوا منذ دهور أو لم يريدوا فان الاكثرية الطاغية في سورية هي للعرب الحقيقيين . انتهى

شكيب ارسلان

حاشية للمصحح: هل كان التغلبيون الذين حاربوا مع عبد الملك ضد خلافة عبد الله بن الزبير مسلمين ؟ هل كانت جيوش العرب المنتصرة التي حاربت مع العرب في العراق ضد العجم مسلمة ؟ هل ينكر ان بني الخازن وبني حبيش وآل شهاب وآل ابي اللمع من نصارى لبنان — وهم من علية طوائف لبنان — غير نصارى ، ولا عبرة بان هذه الطوائف ارتدت ولكن : هل هي عربية أم أعجمية ؟ و كتبه صالح مخلص رضا